صورة المرأة العربية في الرواية

د.فادية المليح حلواني

دعت المثقفات العربيات إلى النهوض بالتعبير عن طموحاتهن وعرض الآلام والآمال في أعمال أدبية يبدعنها، تظهر فيها المرأة العربية كائناً إنسانياً، لها عقل مفكر وأهداف سامية. ولها تطلعاتها المشروعة لتكون فاعلة في المجتمع، تشارك في بنائه وتقدمه فيكون الأدب محرضاً للرجل والمرأة معاً. على تغيير طبيعة العلاقة بينهما فتنتقل من التبعية إلى المشاركة المتساوية ومن الامتهان والاحتقار إلى الاحترام، ومن الشك والريبة إلى الثقة والتعاون.

لذلك فقد دأبت المثقفات العربيات على انتقاء صورة المرأة العربية في الرواية، انتقاءً خاصاً واتهمن الروائيين بالانحياز ضد المرأة وتشويه حقيقتها باختيار الأمثلة السيئة في رواياتهم وترديد الآراء التقليدية الشائعة عنها. والتي تنتقص من قدرها وإنسانيتها.

حاولت الروائيات العربيات تقديم أمثلة مشرقة للمرأة العربية، وحرصن على رسم صورة المرأة القوية صاحبة المبادئ، والمناضلة من أجل ما تؤمن به، والساعية إلى التحرر من التخلف والنظرة الدونية إليها. المرأة المعتمدة على عقلها أكثر من اعتمادها على جسدها، والقادرة على التأثير الإيجابي فيمن حولها، والممسكة بمصيرها بعد أن كان الرجل هو المتحكم الوحيد فيه[1].

وقد نجحت أكثر الروائيات في مسعاهن هذا على الرغم من غلبة الحماسة عليهن في حالات كثيرة وفي إفراطهن في التهوين من أمر الرجل ومن حرصه على دوره التكاملي حتى وصل الأمر ببعض بطلاتهن إلى تشكيل صورة بعيدة عن الواقع أو خارجة عنه مما أضعف من التأثير الإيجابي للرواية وجعلها تبدو وكأنها خارجة عن العقلانية أو عن حركة التطور الطبيعي.

إلا أن ذلك لا يلغي التأثير الإيجابي لأعمالهن الروائية ولاسيما في التنبيه على أهمية تغيير صورة المرأة والنظرة إليها، والدعوة إلى مشاركتها في بناء مجتمع جديد يكون فيه للمرأة مكانة متميزة تؤهلها للتأثير في جوانب الحياة المختلفة.

وبهذا صارت الرواية العربية التي يكتبها الرجل والمرأة ميداناً فسيحاً للكشف عن نوازع المرأة وأفكارها وقدرتها على الإبداع والعطاء.

وقبل الخوض في النصوص الروائية للرائدات الأدبيات أجد نفسي مضطرة للحديث في قبول اصطلاح الأدب النسوي أو عدمه. فكثيرات من الأديبات من يرفضن هذا التعبير أو المصطلح. فالنسوية هي مفهوم يستند إلى التفاوت في الجنس الذي يعد أساس اللامساواة بين النساء والرجال وبسببه تعاني النساء ظلماً اجتماعياً منهجياً جاء نتيجة للضرورة البيولوجية التي سببت اختلافاً في البنية الثقافية.

سعت الحركات الطليعية في المجتمع إلى تغيير الآليات والمسوغات التي تشكل اللامساواة والتي تعمل على ديمومتها.

بينما ينطوي النقد النسوي على تفكير النساء بأنفسهن كناقدات يقاربن الأدب من منظور سياسي في إطار حركة تحرير النساء.

وعلى خلفية هذا الأمر نشأت أسئلة حول علاقة النساء بالدراسة الأدبية وعن سرّ غياب النساء عن التاريخ الأدبي، والكيفية التي جرى بها تصوير النساء في نصوص الرجال الأدبية وعلاقة انتهاك النص للنساء باضطهادهن في المجتمع.

وفي هذا الموضوع تقول الأديبة «سلمى الخضراء الجيوسي»: إن القول بأن النساء أقل حظاً في مواهبهن الفطرية من الرجال قول مرفوض، فإنَّ إنتاج النساء الأدبي على مرّ العصور قد طمس، أو أغفل في عالم يسوده الرجال.

أمّا ما يذكر عن تخلّف المرأة أدبياً فيرجع إلى إشكاليات التوجه والتوقعات وعلى ضالّة الفرص المتاحة لهن.

وتقول السيدة «الجيوسي»: إن مبررات إهمال شعر النساء تعود إلى قلة الالتفات إلى الحماسة التي كانت سمة للشعر العربي القديم. ورغم ذلك فقد أجادت الخنساء في رثاء أخيها صخر والافتخار به.

وترى السيدة «الجيوسي» ضرورة الاهتمام بعرض نتاج المرأة بأدبها وابتكاراتها المبدعة بالقدر نفسه الذي يعتني به الإعلام في نتاج الرجال[٢].

لقد تحول النقد النسوي خلال العقود الثلاثة الأخيرة من التركيز على تبعية النساء الأدبية إلى المقاربة النسوية للأدب، ودراسة كتابة النساء، وتحليل بنية الجنس، وتجسيدها في الخطاب الأدبي.

وأنا أبحث في نضال المرأة المصرية ودورها توقفت كثيراً عند رائدات كبيرات، إضافة إلى روّاد حملوا هَمَّ المرأة وناضلوا طويلاً كي تأخذ دورها وتستعيد عافيتها، فتعيد للمجتمع العربي في مصر كامل قواه. ومررت بأسماء كبيرة كبر مصر متوقفة عند اسم الأستاذة

«د.لطيفة الزيات» فهي كما نعلم وعلى الرغم من إمكانات عائلتها، ناضلت وعملت لتحقيق نظريتها، وإثبات دور المرأة في العطاء والبناء. فقد كانت أستاذة للأدب الإنكليزي في الجامعة، وكاتبة وأديبة ومناضلة في صفوف القوى التقدمية في مصر. لقد كانت «لطيفة الزيات» كاتبة مهمومة بقضايا الوطن، مؤمنة بموجب التحام الفرد بالجامعة، والفرد هنا (ذكر وأنثى)، وأنه لا وجود للفرد إلا من خلال نفي ذاته داخل قضية أكبر من ذاته، تشمله وتشمل المجتمع والوطن ككل. والمعروف أن «د.لطيفة الزيات» بسبب ثقتها بنفسها وبسبب كفاءتها كأستاذة متخصصة، استطاعت أن تحقق مكانة محترمة رفيعة، اعترف لها بذلك خصومها قبل أصدقائها.

وهكذا فقد استوعبت «د.لطيفة الزيات» واستفادت من تجارب من سبقها من «عائشة التيمورية» إلى «هدى شعراوي وملك حفني ناصيف وزينب فواز»، فأكملت المسيرة.

لقد لامست هموم القطر المصري في أعمالها وخصوصاً في أعمالها (حملة تفتيش- أوراق شخصية) في حقبة طويلة من التاريخ المصري منذ الاحتلال الإنكليزي لمصر وحتى الأحداث السياسية في أيلول (١٩٨١م) وقبل مقتل الرئيس «السادات».

كانت «د.لطيفة الزيات» إلى جانب تصوير الأحداث والتقلبات السياسية التي مرّت في تلك الفترة تصوّر حياة المرأة المصرية العربية المثقفة في همومها ومشاكلها، والشيء نفسه فعلته في عمليها الأدبيين (صاحب البيت والباب المفتوح) فقد فرضت هموم المرأة داخل منظومة المجتمع الذي كان بطل أعمالها.

وإذا انتقلنا من مصر إلى المغرب في الشمال الأفريقي نلتقي بأصوات نسائية مغربية كثيرة ومتعددة، من «فاطمة المرنيسي» إلى «أحلام مستغانمي» إلى «فوزية الشلابي».

وأوّل ما لفتني في «أحلام مستغانمي» أنها حددت هويتها وانتماءها، وسجّلت لنفسها أوَّل عمل روائي نسائي باللغة العربية تقدمة كاتبة جزائرية، وتعلن عن فخرها بلغتها وتعصّبها لها.

تقول أحلام: «كان يمكن أن أكتب بالفرنسية، لكن العربية هي لغة قلبي».

منذ البداية ارتبطت «أحلام» بعلاقة عشقية مع اللغة العربية وأبقتها طرفاً ثالثاً في كل صلاتها وقصصها.

تقول: «كنت ارتكبت أجمل حماقاتي وأنا أجعل تلك اللغة التي كان لي معها أكثر من صلة عشقية طرفاً آخر في قصصنا المعقدة».

إنَّها كاتبة تتحلى بهذا القدر من الهجوم الشرس على الرغم من أنوثتها الراقية باتجاه المساحة الضوئية التي أحاطت وتحيط بها، وبأعمالها.

أمَّا «فاطمة المرنيسي» هذا الصوت النسائي الصاعد من أقصى المغرب العربي من (فاس) المدينة المغربية العريقة توءم الشام، والتي حققت بفضل ثقافتها المعمقة وجرأتها المبنية على المعرفة والمنطق والثقة بالنفس مكانة مرموقة بين الأصوات العربية المبدعة، فانتشرت أعمالها ولقيت قبولاً وارتياحاً وإعجاباً، كما ترجمت أعمالها إلى اللغات العالمية الأخرى لتعطي صورة حقة عن فكر المرأة العربية وانطلاقتها وطموحها.

وأتوقف عند ما ذكرته «المرنيسي» عن موضوع الخلافة والسلطة عند المرأة في التاريخ الإسلامي، من خلال كتابها «سلطانات منسيات» الذي قامت بترجمته إلى الفرنسية السيدة «فاطمة الزهراء أزرويل».

والذي تستعرض فيه سيرة النساء المسلمات اللواتي احترفن السياسة ولعبن دوراً مغايراً لنساء الحريم، حيث تستعرض الكاتبة «المرنيسي» ممارسة النساء للسلطة، وتصل إلى نتيجة مفادها أنه لا فرق بين ممارسة الرجال وممارسة النساء لها، إلا في بعض التفاصيل التقنية، واسمحوا لي أن أنقل لكم هنا فقرة مما كتبته الأديبة «المرنيسي»: كان تصور السيدة (وتقصد السلطانة) للسياسة (نسائياً) حسب تعبيرنا اليوم، وذلك أن شؤون الدولة تسير بشكل أفضل إذا ما سهرت عليها النساء وخاصة في مجال العدل، وأمام استنكار الوزراء والقضاة عينت إحدى مساعداتها وتدعى «ثومال» على رأس ديوان المظالم، أي ما يوازي عندنا اليوم «وزارة العدل» فاحتج القضاة الذين سيملون تحت إمرة

«ثومال»، أنكروا تعيينها واستبشعوها، وأشهروا معاداتهم المكروهة تجاه المرأة، ورفضوا التعاون مع المسؤولة الجديدة، ولكنهم عندما أدركوا بأن السيدة «أم المقتدر» لا تعتزم البتّة التنازل بشأن «ثومال»، طأطؤوا رؤوسهم وقبلوا التعاون مع رئيستهم الجديدة.

تتابع الكاتبة «المرنيسي» فتقول يجب أن نعترف بموضوعية المؤرخين الكبار كـ«الطبري» حين يتعلق الأمر بالنساء موضوعية نادراً ما نجدها لدى المحدثين.

يخبرنا «الطبري»: بأن «ثومال» قامت بمهمتها أحسن قيام، وأنَّ الناس أحبوها وقدروا طريقتها في العمل، رغم أنهم رفضوها في البداية، ويعود سبب ذلك إلى أن أوّل أمر أعطاه المقتدر بعد تعيينها (والمقصود هنا هو أم المقتدر التي رمزت إليها المرنيسي بالسيدة) هو القضاء على الفساد، وتخفيض واجب المقاضاة (تكاليفه) بحيث أصبح على المتقاضين دفع قدر واجب المقاضاة (تكاليفه) بحيث أصبح على المتقاضين دفع قدر قليل من المال لإنشاء ملفاتهم، وهو ثمن الورق ولا يقدمون مالاً إلى الملحقين أو الموظفين الصغار الآخرين الذين يحيطون بكبار موظفي العدل.

تتابع الكاتبة وتقول: للأسف ستختفي هذه التفاصيل المهمة المتعلقة بأحد الأحداث الهامة في تاريخ الإسلام، حيث عينت امرأة على رأس وزارة العدل، وفرح الشعب بمسؤولة تقاوم الفساد في الجهاز القضائي، ستختفي هذه التفاصيل طبعاً من التراجم المخصصة لـ«أم المقتدر» من طرف المؤرخين المحدثين.

ما تستعرضه «المرنيسي» عن السلطانات والحكم في الإسلام ووجود خمس عشرة ملكة في التاريخ الإسلامي، وتجاوز المؤرخين أو غالبيتهم للتاريخ السياسي لهن، يحتم علينا التفكير بإعادة كتابة تاريخنا من جديد، وفق أفق واع برؤية كاملة لا عوراء[٣].

وهنا لا بد أن أشير إلى أن أصواتاً نسائية شكلت وعياً متجدداً بالثقافة الوطنية، وصياغة متميزة للخبرة الإنسانية، فكتابة المبدعات العربيات أو الأعمال الهجينة. أبرزت أصواتاً نسائية أسست موقعاً صلباً في الحياة الأدبية وحددت موقفاً واضحاً من أزمة المجتمع العربي في إطار معرفة راقية بحدود الزمان والمكان، ومعظم الكاتبات العربيات يعيّن

الشرط التاريخي الذي عشن فيه على الرغم من ظل الهيمنة الذكورية، فإن غالبيتهن يجدن الحوار الراقي والمعبّر بين ما يكتبونه وأزمة المجتمع العربي.

لقد عبّرت الكاتبات العربيات عن هموم المرأة العربية العصرية على مختلف مستوياتها وأوجهها، وحققت الكاتبة العربية مكانة متميزة وتأثيراً أخلاقياً وتنوعاً في أجناس الإبداع بين القصة والرواية والشعر والمقالة، وأدركت في أعمالها مغزى رسالة الأدب والإبداع، فسعت لدفع المجتمع إلى التغيير بالتقدم والتطوير، ولم تبتعد الكاتبة العربية عن الأدب المقاوم أو الأدب المجاهد، فغرست رؤى مناضلة ومستنيرة أنارت وعي الإنسان العربي بقضاياه الإنسانية والقومية والنضالية.

فكما صورت الراحلة الكبيرة «د.لطيفة الزيات» التحول الذي حدث في المجتمع المصري والمدّ الوطني والثوري ورغبة الفتاة العربية في الدفاع عن وطنها وعن حقها في الحرية والاختيار والعمل «الباب المفتوح» كذلك نرى في أعمال «سحر خليفة» الأديبة الفلسطينية من خلال روايتها «الصبّار» التي صورت المرأة العربية الصامدة التي تقف مثل الصبّار العتيقة تدفع أبناءها وأحفادها إلى الشهادة والتضحية، فصورت مشاكل المجتمع الفلسطيني في ظل الاحتلال الإسرائيلي وانتفاضة أطفال الحجارة، مركّزة على دور المرأة، مقتربة اقتراباً شديداً من مشكلة المرأة في المجتمع الفلسطيني.

وكذلك فعلت «هالة البدري» حين نجحت في روايتها «منتهى» في التعبير عن قضايا فلسطين والوطن والتحرر.

ولابد من التذكير هنا بأن «هالة البدري» لم تهتم في كتابها في خصوصية المرأة، بل رفضت رفضاً كاملاً أن يكون هناك أي تفرقة في النظر بين الأدب النسائي أو الرجالي.

أمَّا الأديبة «سلوى بكر» التي ناقشت بصراحة شديدة قضية المرأة المصرية المنتمية إلى الطبقات الشعبية، فالمرأة عندها ليست مجرد امرأة سلبية، فهي إنسان حافل بالقدرات والطاقات والإمكانات، تتعرض لأنواع من القهر والاضطهاد والتفرقة، إلا أنها تستطيع

على الرغم من كل ذلك أن تتخذ القرار وتحدد مصيرها، وأن تكسر كل أغلال القرون الطويلة.

ولا يمكن أن نتناسى أو نتجاوز الصور الصارخة بالعنف والقهر والظلم ضد المرأة الفلسطينية، تروي قصصاً بطولية نادرة لنساء عشن مأساة فقدهن ابناً أو عدداً من الأبناء، لكنهن يكتمن الألم الدفين ليحافظن على تماسك الأسرة الفلسطينية باعتبارها تمثل استمرارية الانتفاضة، واستعادة الوطن المسلوب، أو المغتصب. إنك تسمع من خلال هذا التحقيق صوت المرأة الفلسطينية المناضلة المكافحة الصابرة على آلامها وحرقة فقدانها لأعزائها، المتماسكة في الوقت نفسه بقوة الصبر والمقاومة والدفاع عن القيم والشعب والوطن.

ولعل الصوت المرتفع عن مقاومة المرأة في الجنوب اللبناني وفلسطين هو الصوت الذي علا مؤكداً دور المرأة ليس جنباً إلى جنب الرجل فقط، وإنما، في مقدمة المجتمع المقاوم. فتلك هي خصوصية المرأة العربية، وذلك هو صوتها الحقيقي ودورها الفاعل والمأمول.

أمَّا «غادة السمان» فقد تأثرت بأكثر من مذهب إيديولوجي، حاملة الرؤية الوجودية في أعمالها، وربما اكتسبت شهرتها من أنوثتها وجرأتها التي شكلت نقلة نوعية في الأدب، فهي امرأة صارخة في وجه المجتمع وتقاليده، باحثة عن الحرية التي تنشدها المرأة بأدب مبدع صادق، قائم على التجربة الذاتية والجرأة في الطرح. ولو أنها أصبحت الآن غير ما كانت عليه من جرأه وتمرد فقد أكسبتها خبرة الحياة والعمر هدوءاً وعمقاً مع جمالية صوفية والذي جعلني أذهب هذا المذهب في زيادتها وجرأتها، ما حصل مع غيرها من الأديبات اللواتي كن أقل جرأة منها، وتكرر معها. فـ«ألفة الإدلبي» اكتسبت شهرتها من الريادة في الأدب النسوي. وإن كانت أقل جرأة، وأكثر التزماً بالمجتمع الذي انطلقت منه، وأعمالها تظهر أنها لم تكن تنطلق من إيديولوجيا ثابتة واضحة، ولم يزد أدبها على انطباعات كانت تحملها حول تحرر المرأة، وصلت إليها من هنا وهناك. ولمسة «ألفة

الإدلبي» الأنثوية جعلتها تنطلق في شهرتها، لتتجاوز الحدود التي لا يمكن أن تكون لهذا الأدب لو قدمه رجل.

إنَّ الشهرة التي اكتسبتها «غادة السمان» دليل على أهمية المرأة في الأدب النسائي إضافة بالطبع إلى الخصوصية التي ميّزت لغة «السمان» الخاصة وبراعتها في التعامل مع الفن الروائي دون أن ننسى مقدرتها في مقالاتها الصحفية فكانت «غادة السمان» إيجابية في طرحها ونظرتها وتمثلها للإيديولوجيات التي تأثرت بها، إضافة إلى أنوثتها وجرأتها في التصريح وإخلاصها لأفكارها والقضايا التي تتبناها.

إنَّ الأصوات النسائية العربية وإن اختلفت في مبناها بسبب اختلاف أنظمة بعض الأقطار وبيئتها ومناهجها التعليمية، إلا أن الصوت الأساسي يجب أن يكون واحداً في هدفه ومبتغاه طالما أننا أمة واحدة، بطموحات وأهداف واحدة، وبتكوين تاريخي وأخلاقي واحد. وهو الدعوة كي تشارك المرأة في عملية الإنتاج المجتمعي كله، من أجل صحة المجتمع وشفائه من كل مرض، ومن أجل تحقيق تنمية مجتمعية متكاملة تخلصنا مما نحن فيه من إعاقات وأمراض لأنها إذا ما استمرت ستكون سبباً في استمرار تخلفنا وفي مزيد من الأمراض إذا كنا نؤمن بأن الأمة جسم واحد إذا اشتكى عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى.

فكيف إذا كان هذا العضو هو نصف المجتمع، أي المرأة؟

إنَّ الإبداع النسائي العربي المعاصر يفتح المجال واسعاً لمساهمة نسائية كبيرة في مجال الوعي العام وفي مجال ارتقاء جمالي في العمل الأدبي من جهة وعمق العاطفة والإحساس لحل المشكل من جهة ثانية.

ومن هنا فإنني أدعو الجميع لمتابعة الأعمال الإبداعية النسائية بالقراءة والنقد البناء والاستفادة والدعم.

الهوامش

١- حلواني، د.فادية المليح، المرأة في رواية قمر كيلاني، مجلة جامعة دمشق المجلد (٢١)، العدد (١+٢)، (٢٠٠٥م)، (ص:٤٢).

٢- عدد الأهرام، الجمعة، (١٩٩٩/١٠/٢٩م)، (ص:٦).

٣- سلطانات منسيات، فاطمة المرنيسي، فنك، الدار البيضاء، (ص:٦٣-٦٤).